18

وصية بالتزام السنن والتمسك بالشرع

نص الوصية

عن العِرْباض بن سارِيَةَ رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رسولُ الله ﷺ الصُّبْحَ ذاتَ يومٍ، ثم أَقْبَلَ علينا فَوَعَظَنا موعظةً بليغةً ذَرَفَتْ منها العيونُ، ووَجِلَتْ منها القلوبُ، فقال قائلٌ: يا رسولَ الله، كأنَّ هذه موعظةُ مودِّعٍ، فماذا تَعْهَدُ إلينا؟ قال: **«أُوْصِيكُم بتقوى اللهِ، والسمعِ والطاعةِ وإن عبداً حبشياً مُجَدَّعاً؛ فإنه مَنْ يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي وسنة الخلفاءِ الراشدين المَهْدِيِّين، فَتَمَسَّكُوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجذِ، وإيَّاكم ومُحْدَثاتِ الأمورِ، فإنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالَةٌ»**[1].

مفردات الوصية

بليغة: مؤثرة في القلوب.

ذَرَفَتْ منها العيون: جَرَتْ دموعها.

وجلت: خافت.

فقال قائل: أي قال رجل من الحاضرين.

تعهد إلينا: توصينا أن نعمل به.

وإنْ عبداً: وإن كان الذي تسمعون له وتطيعونه عبداً، وهذه مبالغة في القول للتشديد على السمع والطاعة، وإلا فإن من شرط خليفة المسلمين والوالي أو الحاكم أن يكون حراً لا عبداً.

---

(1) رواه ابن حبان في صحيحه برقم (5). وهو صحيح.

حبشياً: من بلاد الحبشة.

مجدعاً: أي أطراف أعضائه مقطوعة. وهذا أيضاً للمبالغة، فيشترط في الخليفة والحاكم والوالي أن يكون قادراً على الحكم والقيام بأمور الحكم، والمُجَدَّع لا يقدر على ذلك.

بسنتي: السُّنَّةُ هنا هي كل ما جاء عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير (سُكُوت).

النواجذ: أواخر الأسنان؛ والمراد التمسك بالسنَّة كما يتمسك العاض على الشيء به بجميع أضراسه.

محدثة: أمر جديد في الشرع.

ما يُفْهَمُ من الوصية

أختي المسلمة، تحثُّنا هذه الوصية جميعاً على الالتزام بالتقوى وطاعة الله ورسوله ﷺ، وعدم مخالفة أئمة المسلمين وطاعتهم في كل شيء إلا في المعصية طبعاً، وأئمة المسلمين هم الذين يحكمونهم بكتاب الله وسنة نبيه، وعلينا أن نلتزم بجماعة المسلمين وإمامهم، وألا نبتعد من الشرع الإسلامي وألاَّ ندع الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، فكل الناس المسلمين ذكوراً وإناثاً هم على ثغرة من ثغور الإسلام، وواجب عليهم أن يسدُّوا هذه الثغرة ولا يدعوا مجالاً لعدوِّهم من الإنس والجن أن يدخلوا على الإسلام وأهله من تلك الثغرة، كما يحذرنا النبي ﷺ من البِدَع. وثمة أمور تفصيلية لا بد من إيضاحها هنا على النحو التالي:

1- اتقاء الله

أختي المسلمة، يوصينا النبي ﷺ جميعاً بتقوى الله، وهذه الوصية مهمة جداً؛ فإن الله سبحانه وتعالى قد أوضح لنا أن التقوى لا تأتي من غير اجتهاد

ومشقّة، ومن شروط تحصيلها الأخذ بسبيل العلم، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 282]؛ ومعنى الآية: أن الله سبحانه يطلب منا أن نتَّقيه، ثم كأن ثمة سؤالاً خفياً مستتراً هو: وكيف تكون التقوى؟ فقال: يعلمكم الله؛ أي أن العلم هو الذي يجلب التقوى؛ والعلم هو عبارة عن معلومات في الذهن، وهذه المعلومات هي أفكار، والأفكار منها ما هو بشري ومنها ما هو إلهي علمنا الله إياه، والمعلومات عن التقوى مما علمنا الله إياه، فكلما حصل تفكيرنا في نِعم الله علينا وفي خوفنا منه سبحانه، كان ذلك أقرب إلى أن نخاف الله ونتقيه بحيث نلتزم بما أمر وبما نهى عنه.

فالتقوى أمر يحصل في القلب، وفيه ينعقد، ثم يكون داعياً إلى أن نقوم بأعمال ترضي الله سبحانه؛ فلذلك كانت التقوى دائماً مع الإيمان، لأن الإيمان اعتقاد قلبي، والتقوى هي ظاهرة في أعمال الإنسان التي يؤيدها ما في قلبه من تعظيم أوامر الله سبحانه وتقديس الله والخوف منه، والاعتماد في العمل على أننا إنما نقوم به – أي بالعمل – لأن الله سبحانه أمرنا، وهو الذي نطيعه لأنه الإله المستحق للطاعة بعبادتنا إياه.

ولقد كان أبو بكر الصديق يقول في خطبته: أوصيكم بتقوى الله، وحين حضرته الوفاة أوصى عمر بن الخطاب ثم قال له: اتَّقِ الله يا عمر.

وكتب عمر رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله يقول له: أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل فإنه من اتَّقاه وَقَاهُ، ومن أَقرَضَهُ جَزَاهُ، ومن شَكَرَهُ زادَهُ، واجعل التقوى نُصْبَ عينيك وجَلاَءَ قلبك.

وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد قال لرجل استعمله على سرية من سرايا الجيش: أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يَقْبَلُ غيرها،

ولا يرحم إلا أهلَها، ولا يُثيب إلا عليها؛ فإن الواعظين بها كثيرٌ، والعاملين بها قليلٌ، جعلنا الله وإياك من المتقين. وحين تولى الخلافة خطب الله وأثنى عليه ثم قال: أوصيكم بتقوى الله عز وجل؛ فإن تقوى الله عز وجل خَلَفٌ من كل شيء، وليس من تقوى الله خُلْفٌ. يعني أن تقوى الله تَخْلِفُ كل شيء وهي وراء كل عمل، وليس لها بديل عند الله.

وكان الصحابة رضي الله عنهم والتابعون يوصي بعضهم بعضاً بتقوى الله، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128]؛ فربط التقوى مع العمل الصالح الجيد، وذلك لأنها تؤدي إلى إحسان العمل وتلازمه.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: 56] وقال: **«قال ربكم: أنا أهلُ أن أُتَّقى، فلا يُجْعَلْ معي إلهٌ، فمن اتقى أن يجعل معي إلهاً كان أهلاً أن أغفِرَ له»**[1]. وقال رسول الله ﷺ: **«اتقوا النارَ ولو بِشِقِّ تمرة»**[2].

فمعنى التقوى – أختي المسلمة – أن تجعلي بينك وبين ما تخشينه من ربك من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيك من ذلك كله: وهي فعل طاعة الله، واجتناب معاصيه، والتقوى هي أفضل صفة للإنسان المسلم؛ فبها يكون نجاحه ودخوله في ظل الله سبحانه بحيث لا يحتجب الله منه.

---

(1) وهذا الحديث بالرغم من أنه ضعيف إلا أنه في معنى الصحيح.

(2) بشق تمرة: بنِصف تمرة؛ أي لا تستقلّوا من المعروف شيئاً.

- أقوال في التقوى

ومن تعريفات التقوى الواردة عن السلف الصالح ما يلي:

أ- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: المتقون الذين يَحْذَرُونَ من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به.

ب- عن طَلْق بن حبيب أحد الزهاد العلماء العاملين قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثوابَ اللهِ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله.

ج- عن الحسن البصري رحمه الله قال: المتقون اتَّقَوا ما حَرَّم اللهُ عليهم، وأَدَّوا ما افترضَ اللهُ عليهم.

د- عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال: ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله تركُ ما حَرَّمَ اللهُ وأداءُ ما افترضَ اللهُ، فمن رُزِقَ بعد ذلك خيراً فهو خير إلى خير.

هـ- عن ميمون بن مهران رحمه الله قال: المتقي أشدُّ محاسبةً لنفسه من الشريك الشحيح لشريكه.

و- عن موسى بن أَعْيَنَ رحمه الله قال: المتقون تنزهوا عن أشياء من الحرام مخافَةَ أن يقعوا في الحرام فسمَّاهم الله متَّقين.

- أهمية التقوى

أختي المسلمة، إن التقوى كما مر قد تكون في فعل الطاعات جميعاً، كما أنها تكون أحياناً دالة على اجتناب المعاصي. والله سبحانه وتعالى قد بيَّن لنا في كتابه جوهر التقوى وحقيقتها كما يلي:

- أطلقها الله سبحانه على كلمة الإخلاص التي هي «لا إله إلا الله» فقال جل وعلا: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: 26]. وقد قال بعض المفسرين: إنها الإخلاص. وقال بعضهم: هي بسم الله الرحمن الرحيم. وقال بعضهم: هي قولهم: سمعنا وأطعنا بعد خوضهم (أي بعد خوضهم في المعصية). ولعلّ الصواب هو ما ذكرناه أولاً.

- وقد أمر الله عباده بها وأمر بها، المؤمنين خصوصاً فقال: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: 2]، وقال: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: 52]، وقال: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: 16]، وقال أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 102]، وقال أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: 1]، وقال أيضاً: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾ [النساء: 131].

-وقد أوصى بها الأنبياء أقوامهم، فقالوا: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء: 106 و124 و142 و161 و177]؛ وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وأيضاً وصَّى بها إبراهيمُ قومه، قال تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 16].

- وطلب الله سبحانه أيضاً من الناس عبادته لتحقيقها، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 21]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 183]، وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]؛ فكل هذه أعمال لتحقيق التقوى.

- ومكان التقوى هو القلب، بما أوضحه النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: **«لا تَحَاسَدُوا، ولا تناجَشُوا، ولا تباغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بعضُكم على بيع بعض، وكونوا - عبادَ اللهِ - إخواناً. المسلم أخو المسلم لا يَظْلِمُهُ ولا يَخْذُلُهُ ولا يَحْقِرُهُ. التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بِحَسْبِ امرئٍ من الشر أن يَحْقِرَ أخاه المسلمَ. كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ: دَمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ»**[1].

- ثمرات التقوى

أ- ومن ثمرات التقوى - أختي المسلمة - محبة الله تعالى للعبد؛ فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: 4 و7]، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 76]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: 36].

ب- وأوضح الله سبحانه وتعالى أن المتقين آمنون من كل خوف ومن كل ما يَحْذَرُون منه ومن السوء والمكروه في الدنيا والآخرة، فقال جل وعلا:

---

(1) لا تناجشوا: من بيع النجْش أحد بيوع الجاهلية، وهو أن يزيد شخص على ثمن السلعة أمام المشتري ليرفع ثمنها. تدابروا: يقاطع بعضكم بعضاً فلا يتكلم أحدكم مع صاحبه ويدير ظهره له.

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 35]، وقال: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الزمر: 61].

ت- وما دام الإنسان يتقي الله بما لديه من أفكار ومعلومات شرعية تعلمها، فإن التقوى لها دور كبير في تقوية بصيرة العقل لدى المسلم، فيميز بين النافع والضار له، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الأنفال: 29]، وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: 28].

ث- والتقوى وسيلة للوصول إلى الأجر العظيم عند الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: 5]، وقال: ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179].

ج- والتقوى وسيلة لدفع الشيطان والتغلب عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

ح- وإن توسيع الرزق وإرسال الله الخيرات للناس يكون بالتقوى التي لدى الناس؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96]، وقال أيضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3].

خ- وفي التقوى تفريج الكروب وتسهيل الأمور وتيسيرها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ

أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 3]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: 5-7].

د- ومن ثمرات التقوى النصر على العدو والنجاة من شره وردُّ كيده، قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120]، وقال: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125]، وقال: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: 18].

ذ-وبيَّن الله تعالى أن الأمور تصير إلى المتقين في الدنيا والآخرة؛ يكافئهم الله في الدنيا على صبرهم، وكذلك يجزيهم أحسن ما عملوا في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128] و[القصص: 83]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]، وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ﴾ [الرعد: 35]، وقال أيضاً: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: 212].

ر- التقوى طريق إلى ولاية الله وصفة لأولياء الله؛ قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: 62-64]، وشرح النبي ﷺ هذه الآية شرحاً وافياً؛ فقد جاء عنه قوله: «**إن لله عباداً ليسوا بأنبياءَ ولا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الشهداءُ والأنبياءُ يومَ القيامةِ لِقُرْبهم من الله تعالى ومَجْلِسِهم منه**»، فَجَثَا أعرابي على ركبتيه فقال: يا رسول الله، صِفْهُم لنا وجَلِّهِمْ لنا. قال:

«قومٌ من أفناء الناس، من نُزَّاع القبائل، تَصَادَقُوا في اللهِ، وتحابُّوا فيه، يَضَعُ اللهُ عز وجل لهم مَنَابِرَ من نور. يخاف الناسُ ولا يخافون. هم أولياءُ الله عز وجل الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»[1].

ز- التقوى هي الميزان الذي يُقَرب العبد من ربه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: 13].

ح- هي أفضل ما يتزود به العبد في طريقه إلى الله، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: 197]؛ وجاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أريد سفراً فَزَوِّدني. قال: **«زَوَّدَكَ اللهُ التقوى»**. قال: زِدْني. قال: **«وَغَفَرَ ذَنْبَكَ»**. قال: زدني بأبي أنت وأمي. قال: **«ويَسَّرَ لك الخَيرَ حيثما كنتَ»**.

2- التمسك بسنة النبي ﷺ

أختي المسلمة، في هذه الوصية يطلب النبي ﷺ منا طلباً جازماً – أي من باب الفرض والواجب – أن نلتزم بسنته، وفي هذه الوصية أيضاً إشارة إلى أن العصور التي بعد عصر النبي ﷺ سوف يحصل فيها اختلاف كثير، ويرشدنا النبي ﷺ إلى أن حلَّ هذا الخلاف واضح هو: بالرجوع إلى سنة النبي ﷺ، فالا ختلاف سيكون حول معاني القرآن بلا شك، والسنة النبوية موضحة لكتاب الله تعالى.

وأما كيفية توضيح السنة للقرآن فعلى النحو التالي:

---

(1) يغبطهم: يتمنون أن يكونوا مثلهم، والغِبْطَةُ تختلف عن الحسد بتمني أن يكون الإنسان كالآخرين من غير تمني زوال النعمة عنهم، والحسد فيه تمني ذهاب تلك النعمة. جلهم: اكشف لنا عن حالهم. أفناء الناس: الأخلاط الذين لا تعرف قبيلة واحد منهم وإلى أي قبيلة ينتسب؟ نزاع القبائل: أي من قبائل مختلفة من هنا وهناك. والقبيلة في ذلك الزمان كالدولة عندنا.

أ- أنها تبين المجمل من السنة: والمجمل من السنة هو ما يحتمل أمرين أو أكثر عند إطلاقه ولا يتضح مَزِية أمر على آخر؛ أي هو ما له دلالة غير واضحة؛ فإن قوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: 72] و﴿وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 43]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97] كلها من هذا الباب، ليس في النص نفسه ما يعرفنا إلى المراد بالمعنى؛ ثم جاءت السنة النبوية فبينت لنا أن الصلاة لها هيئة مخصوصة بركوع وسجود وتحريم وتكبير وتفاصيل أخرى، وكذلك بيَّنت لنا أفعال الحج التفصيلية، وبيَّنت كيفية الزكاة وأبواب الزكاة وتفريعاتها، ففصَّلَتْ السنة هذا الإجمال.

ب- والسنة تخصص أيضاً ما جاء عاماً في القرآن: فقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11] هي آية ذات دلالة عامة في كل أب يورّث وفي كل ولد وارث، غير أن السنة خصَّصت هذه الآية مثلاً بكون الأنبياء لا يوِّرثون أحداً، كما خصَّصت الوارث بغير القاتل؛ وهذا في قوله ﷺ: **«نحن - معاشر الأنبياء - لا نورَثُ»**، وقوله عليه السلام: **«القاتل لا يَرِثُ»**.

ج- ومن ذلك أن تأتي الآية مطلقة بدون أي قيد، ثم تأتي السنة فتقيِّد ذلك المطلق؛ فقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38] هي مطلقة في كل سارق وفي كل سرقة، ثم جاءت السنة فقيدت السرقة التي يجري فيها القطع بقيود، مثل أن القطع يكون في ربع دينار فصاعداً في قوله ﷺ: **«لا قَطْعَ إلا في رُبْع دينار فصاعداً»**.

ولا يجوز ترك السنة النبوية، فمن تركها رفضاً لها خرج عن دين الإسلام؛ أي ترك كل ما جاء عن النبي ﷺ من الأقوال والأعمال وما أقره

النبي ﷺ مما جرى أمامه وسكت عليه، فالسنة كالقرآن الكريم أصل قطعي لا يصح التشكيك فيه ولا تركه، والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7]؛ فهذا طلب أن نتبع السنة النبوية المنقولة عن النبي ﷺ.

وقد حذرنا النبي ﷺ من هذا الوضع الخطير في ترك السنة النبوية فقال: **«لا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئاً على أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الأمرُ من أمري مِمَّا أَمَرْتُ به أو نَهَيْتُ عنه فيقول: لا ندري، ما وَجَدْنا في كتابِ اللهِ اتَّبَعْنَاهُ. أَلاَ إني أُوتِيتُ الكتابَ ومِثْلَهُ مَعَهُ»**[1].

فالله سبحانه حفظ لنا هذه السنة الشريفة بجهود علماء الحديث والرواة الذين يعرف بعضهم بعضاً كما يعرف أهل القرية بعضهم بعضاً. وقد انفردت الأمة الإسلامية دون الأمم جميعاً بعلم الرواية في الحديث وحتى في غير الحديث النبوي كالتاريخ وغيره، ونحن نعرف الروايات الصحيحة وغير الصحيحة اليوم بأدق الوسائل وبأخفى الأساليب على الأمم الأخرى، وما زال هذا العلم قائماً إلى يومنا هذا.

3- التمسك بسنة الخلفاء الراشدين

أختي المسلمة، يرشدنا النبي ﷺ إلى التمسك بسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده أيضاً، وهذا لأن النبي ﷺ أشار إلى اختلاف الناس بعده، وإلى اختلاف الأمراء، وأن الخلافة بعده ستتحول إلى مسير غير مسير منهج النبوة، ولذلك طلب إلينا أن نطيع الأمراء لئلا يحصل تفكك في الحكم

(1) لا ألفين: لا أجدنّ، وألفيت الشيء: وجدتُهُ. أريكته: الأريكة: السرير في الحَجَلة من دونه سِتْرٌ. والحجلة: بيت كالقبة يستر بالثياب وتكون له أزرار كبار.

والدولة الإسلامية، ولما كان الأمراء منهم من يكون مَهْدِياً راشداً ومنهم من يكون غير ذلك، فأمرنا لذلك أن نتبع سنة الخلفاء الراشدين المهديين في الحكم والخلافة أو الدولة.

والخلفاء الراشدون المهديون ليسوا هم الخلفاء الأربعة فقط: أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم، بل كلمة "المهديين" تشمل كل خليفة مهدي يعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى قيام الساعة؛ فعمر بن عبد العزيز مثلاً من خلفاء بني أمية هو خليفة راشد مهدي، وله رواية لحديث النبي ﷺ، وقد وصلتنا روايته في كتاب عرف باسم "مسند عمر بن عبد العزيز"، وكذلك فإن الخليفة "المهدي" و"هارون الرشيد" من بني العباس نظن أنهم من الخلفاء الراشدين المهديين أيضاً، وحتى عيسى بن مريم عليهما السلام هو من هؤلاء المهديين الراشدين.

فقد جاءت الأحاديث النبوية توضح لنا أن الأحداث على المسلمين كثيرة، وأن دولة الإسلام سوف تنتهي وتزول، ثم ستعود وتكبر كما كانت أول أمرها، وستضعف وسيتقاتل القادة على السلطة كالسفياني والمرواني مثلاً كما ورد في الأحاديث لدى كل المذاهب الإسلامية، ثم سيبايع الناسُ رجلاً عند الحرم هو المهدي محمد بن عبد الله، وسيجمع كلمة المسلمين، ثم سيطبق الإسلام في الأرض وستبلغ الخيرات مبلغاً عظيماً، وسيأتي المال لدولة الإسلام كما لم يكن حصل مثله من قبل، حتى إن الرجل ليأتي إلى الخليفة المهدي يطلب منه المال فيملأ له المال الكثير ويَحْثِيْهِ له حَثْياً.

وبعد موت المهدي سوف تتكالب الأمم على المسلمين: الترك والروم، وسيشتد القتال، وبسبب كثرة المال على الأرض يتقاتل أولاد الخلفاء على المال، وستظهر كنوز الأرض، وبعد ذلك سوف تفتح بلاد إيطاليا التي هي

"رومية"، وستفتح القسطنطينية في عهد قوة دولة الإسلام، وبعد ذلك يظهر الدجال الذي يفسد في الأرض، ثم ينزل عيسى عليه السلام ويكون المسلمون إمامهم وخليفتهم رجل صالح (مهدي) في بيت المقدس، ويقتل عيسى الدجالَ عند باب لُدّ، ثم يظهر يأجوج ومأجوج الذين ما يلبثون أن يقتلهم الله بالدود في أنوفهم ورؤوسهم.

ثم يخرج عيسى وأصحابه لِيَحْكُمَ بالإسلام في الأرض عقوداً أربعة، وتمتلئ الأرض بالخيرات الزراعية، ثم يموت عيسى عليه السلام، وبعده يأتي الضعف والانحلال في دولة الإسلام، حتى تتضعضع وتطلع الشمس من المشرق فيغلق باب التوبة وتخرج الدابة بعصا موسى وخاتم سليمان لتختم على جبهة المؤمن بالخاتم، وتضرب بالعصا على جبهة الكافر ليكتب على كل جبين صفة صاحبه: مؤمن أو كافر، بحيث يقرؤها الناس جميعاً.

ثم تخرج الريح التي تقبض كل نسمة مؤمنة، فلا يبقى على الأرض من يوحِّد الله، ويبقى شرار الناس عليها، ويُرفع القرآن، ويُقبض العلم من الصدور، وترجع الوثنية إلى الأرض، وتهدم الكعبة ويستخرج كنزها فينهبه الحبشة مع قائدهم "ذي السُّويقيتين"، ثم تخرج النار من قُعْرَةِ عدن لتحشر الناس إلى أرض المحشر التي هي الشام، ثم بعد فترة ينفخ بالصور النفخة الأولى نفخة الصعق.

هذه الأحداث هي ما ورد فيها إشارة من النبي ﷺ، وهي مفصلة في أحاديث كثيرة واردة عنه، وفيها يتضح أن عيسى مهدي، وقد قال النبي ﷺ: **«لا مَهْدِيَّ إلا عيسى»**، أي ليس ثمة مهدي يطبق الإسلام على الأرض كما يطبقه عيسى عليه السلام، وهذا كقولنا: لا عالم في البلد إلا زيد؛ أي ليس

ثمة رجل لديه العلم الكامل في البلد مثل زيد. فأما "المهدي" الخاص الذي ذكره النبي ﷺ فهو من بين الخلفاء المهديين الآخرين.

ومن هنا – أختي المسلمة – نفهم من التمسك بسنة النبي ﷺ أننا نتبع السنة ونقلّد العلماء المجتهدين الذين يعرفون كيف يستخرجون المعاني التي في سنة النبي ﷺ، ومنهم من نعرفهم كالإمام الشافعي والإمام مالك وأحمد وأبي حنيفة رحمهم الله، ومنهم من نجهل الكثير عنهم وهم كثيرون أيضاً، وأقوالهم منقولة مشتهرة، ومنهم أيضاً الخلفاء الراشدون الأربعة رضي الله عنهم، ومنهم كل عالم بالشرع من الخلفاء الراشدين المهديين الذين ذهبوا أو الذين سيأتون ويحكمون بالعدل والإسلام.

والتقليد هو لمن لا يستطيع أن يستخرج بنفسه معاني القرآن والسنة النبوية، وكلنا مقلدون نتبع أقوال العلماء المجتهدين، وإذا ظهر لنا الدليل الشرعي في قول ما من بين الأقوال المختلفة نلجأ إلى ذلك القول لأننا نتبع الدليل أصلاً، وإنما نقلد العلماء بالكتاب والسنة بسبب وجود ترجيحات لدينا عامة أو خاصة، فمثلاً نحن قد نظن بما لدينا من معلومات عن الأئمة أن الشافعي هو أعلم من غيره وأعلى قدرة على فهم النصوص، وكذلك من يظن أبا حنيفة أقدر، وكذلك إذا ظننا أن عمر بن عبد العزيز أقدر من غيره في هذه المسألة أو تلك، فنحن بهذا نتبع ترجيحات معينة، فهذا كله من اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، وإذا ما كان أحدهم له رأي شرعي في مسألة ما فإننا نتبعه فيها إذا كان رئيس دولة حاكماً علينا، وهو هنا واجب الطاعة، وهذا هو أحد المعاني التي تستلزمها هذه الوصية.

4- معنى البدعة

أختي المسلمة، يحذرنا النبي ﷺ من أن نخالف السنة بأن نفعل البدعة؛ والبدعة هي مخالفة الكيفية التي جاء بها الشرع الحنيف؛ ولكن ما معنى الكيفية؟

الكيفية يحددها الشرع بالنصوص، وهي مسألة دقيقة، فقد جاءت أوامر عديدة في الكتاب والسنة حدّد لنا الشرع كيفياتٍ لها، وثمة أوامر لم يحدد لنا الشرع كيفياتٍ فيها؛ فمثلاً الصلاة كلها جاءت بكيفيات مخصوصة من ركوع وسجود واعتدال وقيام وتسبيح وتكبير واطمئنان وقراءة قرآن، فكل ما جاء فيها هو كيفيات محددة؛ فلا يصح مثلاً أن نزيد ركوعاً ثانياً على الركوع الواحد في الصلوات المفروضات الخمس، ولا في الصلوات الأخرى التي هي سنن، فهذه بدعة تبطل الصلاة أصلاً.

وكذلك ليس لنا أن نزيد على كلمات الأذان والإقامة ولا أن ننقص منها؛ فالنبي ﷺ عَدَّدَ كلمات الأذان وكلمات الإقامة، فأوضح لنا أنها كيفيات. ومثلاً الدعاء كيفيته برفع اليدين أو إسبال اليدين، فكلاهما جاءت به النصوص عن النبي ﷺ في فعله، فإذا ما مسح الإنسان وجهه في أثناء الدعاء فهو بدعة.

ومثلاً علاج النشوز لدى المرأة هو كما بيَّنه القرآن بالترتيب: الوعظ، ثم الهجران، ثم الضرب غير المبرح، فلا يصح أن يعالج الإنسان النشوز بالطلاق، فهذا مخالفة للكيفية التي ذكرها القرآن. وأيضاً فإن الطلاق لا يجوز أن يتم بثلاث مرات في مجلس واحد في المرة الواحدة: بأن يرمي الرجل اليمين ثلاث مرات في مجلس واحد، فهذا ابتداع، وقد سماه الفقهاء لذلك "الطلاق

البِدْعِيَّ" نسبة إلى "البدعة"؛ والطلاق السُّنِّي يكون مرةً حتى يستوفي الإنسان المرات الثلاث في شهور ثلاثة، فيقوم برمي يمين طلاق على رأس كل شهر.

وحدَّد لنا الشرع كيفية مسنونة للإفطار في رمضان؛ فالمسلم يفطر إما على التمر وإما على الماء، فإذا ما أفطر على شراب السوس مثلاً فهذه مخالفة للسنة ولكيفية الإفطار.

وأما الصلاة على النبي ﷺ فهي عندما تكون في الصلوات فلها كيفية مخصوصة حددها الشرع بألفاظ واردة عن النبي ﷺ، ولا يجوز أن نزيد فيها ولا أن ننقص. وفيما سوى ذلك لم يأت لها كيفية مخصوصة، فيصلي الإنسان على النبي ﷺ في غير الصلوات بما شاء من ألفاظ الصلاة على النبي ﷺ.

ودعاء الأئمة في المساجد بعد الصلوات ليس مخالفة للكيفية الشرعية. فلم يأت للدعاء كيفية إلا في رفع اليدين أو إسبالهما، وأما ألفاظ دعاء القنوت فليس له كيفية محددة، وليَدْعُ الإنسان بما شاء أن يدعو من الأدعية الواردة في القنوت وغيره، وحتى بعد الصلوات، فكل هذا ليس بدعة.

والمسبحة أو السُّبْحَة ليست بدعة أيضاً، فأن يعقد الإنسان على أصابعه ليس تحديداً شرعياً للكيفية حتى يقال: لا تجوز السبحة، والواجب العقد على الأصابع للعَدّ، فلو عدَّ الإنسان بعدَّاد رقمي فهو كذلك مثل السبحة ليس بدعة.

5- أنواع البدعة

البدعة نوعان: بدعة هوى، وبدعة ضلالة أو كُفْر؛ وبدعة الهوى هو ما ذكرناه من مخالفة الكيفية التي أتى بها الشرع. وأما بدعة الضلالة أو الكفر فهذه هي البدعة التي تجعل الإنسان المسلم خارجاً عن سبيل الإسلام. وقد

سماها العلماء "بدعة" من باب التجاوز، وهي لأنها في أصلها مخالفة للكيفية الشرعية إلا أن صاحبها قصد الكفر وأراده بفساد تأويله وبعدم وجود أي دليل له في النصوص، بحيث يحرف النصوص القطعية في المسألة التي يأخذ بها.

ولا بد أن نشير أخيراً إلى أن البدعة الخارجة عن الشرع بدعة وليس ثمة بدعةٌ حسنة وبدعة غير حسنة؛ فهذا التفريق ليس له علاقة بالشرع، بل هو من خواطر الشيطان، فالنبي ﷺ لم يقل: إن البدعة بدعتان: حسنة وسيئة، بل ذكر أن البدعة أينما كانت ضلالة، وهذا يعني أننا نلتزم بنصوص الكتاب والسنة. وثمة نص يرويه الشيعة وأهل السنة، وهو قوله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون عقله الذي يَعْقِلُ به»**؛ وهذا النص يعني أن يكون تفكير الإنسان المؤمن على حسب ما يأتي في نصوص القرآن والسنة النبوية؛ أي أنه يفكر على مُقْتَضَاهما، ولا يخرج عنهما بأي حال من الأحوال.